

أقسام المعرفة، بقلم السيّد عادل العلوي



أقسام المعرفة، بقلم السيّد عادل العلوي

لا ريب كما ورد في القرآن الكريم والسنة المطهرة والأحاديث الشريفة أنّ عظمة الإنسان وفضله وسمّوه ورفعته إنما هو بعلمه ومعرفته فقيمة كل إنسان ما يُحسّنه ويعرفه، وإن أفضلكم يوم القيامة أفضلكم معرفةً، ولا قيمة للعلم والمعرفة لولا العمل الصالح، وقيمة العمل الصالح بالإخلاص، وبالإخلاص يكون الخِلاص كما يكون النيل والقرب والوصول من العلي الأعلى، إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح وهو المخلص يرفعه.

قال الإمام الصادق عليه السلام: لا يقبل [] عملاً [] إلا بمعرفةٍ، ولا معرفة [] إلا بعملٍ، فمن عرف دلته المعرفة على العمل، ومن لم يعمل فلا معرفة له [1]، فهناك إرتباط وثيق بين المعرفة والعمل وأحدهما يدل على الآخر من باب دلالة العلم الإجمالي على التفصيل وبالعكس كالعالم والخاص .

وفي الحديث الشريف النَّاسُ كُلُّهُمْ هَلِكِي ، إِلَّا الْعُلَمَاءَ ، وَالْعُلَمَاءُ كُلُّهُمْ هَلِكِي ، إِلَّا الْعَامِلُونَ ،

والعاملون كلهم هلكي، إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم.

وهو خطر الرياء، فإنه كدببية النملة سوداء على الصخرة صلماء في الليلة ظلماء، فمن يحسّ بدبيب ومشي تلك النملة؟! وما أبرء نفسي الأمانة بالسوء إلا ما رحم ربي، وإنّ الشيطان عدو الإنسان لبالمرصاد فقسم منذ اليوم الأول بعزّة ا لليغوين بني آدم أجمعين، إلا عباد ا المخلصين الذين أخلصهم ا لنفسه وللدّار الآخرة.

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام لكميل صاحب سرّه: يا كميل ما من حركة إلا وأنت محتاج فيها إلى معرفة [2].

فمعرفة ا ورسوله وإمام زمانك واجبة على كل مسلم ومسلمة، ومؤمن ومؤمنة، فمن لم يعرف ا ولم يعرف الرسول، ولم يعرف إمام زمانه ومات، مات ميتة الجاهلية ميتة كفر ونفاق وضلال، وكان عاقبته العذاب والنار.

(اللهم عرفني نفسك فإنّك إن لم تعرفني نفسك لم أعرف نبيّك، اللهم عرفني رسولك، فإنّك إن لم تعرفني رسولك لم أعرف جُجتك اللهم عرفني جُجتك، فإنّك إن لم تعرفني جُجتك ضللت عن ديني اللهم لا تمتني ميتة الجاهلية) [3].

أقسام المعرفة وأنواعها:

ثمّ إن كانت المعرفة بمنزلة الجنس، ولكل جنس أنواع، كما للنوع أصناف، وللصنف أفراد ومصاديق، فأشار العلماء الأعلام إلى جملة من أنواع المعرفة وأقسامها، ومن خلالها ستقف على مستويات المعارف عند الناس ومستوى العلماء، وإختلاف الطرق في منهجية المعرفة ونوعها، ومن خلال كلّ نوع يستطيع العارف معرفة التوحيد والنبوة والإمامة، بل أي حقيقة من الحقائق، وأي شيء من الأشياء، كما أنّّه من خلال متعلّقات المعرفة تنقسم المعارف وتتنوع إلى أنواع وأقسام.

ولما كان الحديث في معرفة الإمام والإمامة في ضوء الدّين الإسلامي ومذهب أهل البيت عليهم السلام، كما لو أردت أن تعرف سيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام، فإنّك تستطيع أن تعرفه عليه السلام وتعرفه على قدر قابليتنا كمّاً وكيفاً، وساحة إستعدادنا وخلفياتنا العلمية والثقافية بالطرق المعرفية التالية:

1 - المعرفة العقلية: وتكون بالإستدلال العلمي والبرهان المنطقي العقلي من القياسات وترتيب المقدمات من الصغريات والكبرويات والنتائج السليمة، بحسب الشرائط المذكورة في علم المنطق والفلسفة.

2 - المعرفة الشَّهودية الكشفية العرفانية: وهي بالقلب الذِّقِّي التَّقِي الزكِّي كالمرآة الصافية وتكون بالمكاشفات القلبية الرحمانية الصادقة.

3 - المعرفة الفطرية: وتكون بالأمر والقضايا المجعولة في أصل الخلقة الإنسانية وفطرة الإنسان الذي يعبّر عنها في الأحاديث بالباطن الإنساني، وقد اختلف الأعلام في معنى وتفسير الفطرة، ولا سيّما في قوله تعالى: {فِطْرَةَ اللَّاهِ السَّتِي فَطَرَ الذِّسَّاسَ عَلَیْهَا} [4]. والدليل الفطرة من الأدلة المعصومة كالدليل العقلي والقرآن الكريم والخبر الصحيح، وقيل في معناه: العهد المأخوذ في عالم الذرّ على القول به وقيل: الحقيقة التي خلق الله تعالى الناس عليها وهي قبولهم الحق والتوحيد والرسالة الإمامية لو خلى الإنسان مع نفسه من دون تأثير المحيط عليه وقيل: معناها: كل مولود يولد على معرفة الله وعشق الكمال المطلق والجمال والخير، ورد عن أهل البيت عليهم السلام الفطرة: بمعنى الحنفيّة في قوله تعالى: {حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ}، وبمعنى الولاية وأنها لا إله إلاّ محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علي أمير المؤمنين عليه السلام والتوحيد والإسلام والمعرفة وغيرها، كما في علم المنطق في مواد أقيسة البرهان.

في الشكل الأول ومادته من الأوليات ومنها: النظريات، ولا ريب أنّ المعارف الإلهية وأسرار التوحيد والنبوة والإمامة مكنونة ومخزونة في فطرة الناس منذ آدم وإلى يوم القيامة كما هو ثابت في محله ومعلوم عند أهله.

4 - المعرفة الذِّقْلِيّة: ويكون بالأدلة النقلية في الكتاب الكريم والسنة المطهرة ومنها الأئمة المعصومين عليهم السلام أي بما ورد في الأخبار الصحيحة والمعتبرة عن الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام

المختار في أخذ الأخبار بصورة عامة أنّها في الأحكام الشرعية والتكليفية إنما تأخذ بخبر الثقة من حيث السند وفي غيرها من العقائد والأخلاق فإنما تأخذ بخبر الموثوق منها، ودلالة من حيث إثباتها في العقائد بالبراهين العقلية، وفي الأخلاق بالأدلة الفطرية، والله العاصم والمستعان، وترجع هذه المعرفة إلى جذور ثلاثة مفطورة على عشق الكمال المطلق أي تتجه إلى الله سبحانه وهي حب الكمال وحب

5 - المعرفة التاريخية: ويُقصد منها أن تكون من خلال مراجعة كتب التاريخ والمؤرخين بعد التمحيص والتحليل العلمي التاريخي، وإخراج الغث من السمين.

6 - المعرفة الجمالية: ويقصد منها معرفة الشيء من جوهره وبواطنه.

7 - المعرفة الكمالية: وتكون بالوقوف على معرفة العلل الأربعة في كل معلول من العلة الفاعلية والصورية والمادية والغائية، فتقف على غاية الشيء وكماله والمقصود من وجوده وإيجاده.

8 - المعرفة النورانية: وهي تعني أن تعرف الإمام عليه السلام مثلاً من خلال الوقوف والإطلاع على الخلقة النورانية له وكيف أن "إسبحانه نور السموات والأرض يتجلى نوره في خلقته النورية" كما قال أمير المؤمنين لسلمان المحمدي وأبي ذر رضوان "إعليهما (اعرفونا بالنورانية...).

9- المعرفة المناقبية: وتكون من خلال معرفة فضائل ومناقب وكرامات ومعجز النبي " أو الإمام عليهم السلام والولي الصالح أو الولية الصالحة.

10 - المعرفة العلمية والنعكسية: وتكون من خلال قراءة سيرة الإمام عليه السلام والقضايا العلمية التي تكلّموا بها.

11 - المعرفة الحسية: وهي أدنى المعارف ومنشأها الحواس الخمس الظاهرية، يؤمن بها الأغلب من الناس فهذه هي أقسام المعرفة العامة، وتعدّ بمنزلة أُمّهات المعارف، ومنها تتشعب وتتفرّع المعارف الأخرى وإنطباقها وجريانها على مصاديقها على إختلافها في الأحوال وفي الأزمنة والأمكنة.

ثم لا يخفى أن " لكل إنسان في خلقته الأولى، جانبين وبتّعين: أحدهما: العنصر والبُعد المادّي المتحقق في الجسم الإنساني الذي يأخذ حيزاً في الوجود، كأيّ جسم آخر ذات الأبعاد الثلاثة: الطول والعرض والعمق، ويتكوّن من الجوارح الظاهرة ومحلاًّ للحواس الخمسة أي الباصرة والسماعة والشمّامة والذائقة واللامسة.

وثانيها: العنصر والبعد الرّوحي المعنوي، وفيه الفطرة والعقل والنفس والجوانح الباطنية، ويكون

، لأنّ لا ينظر إلى صوركم وأقوالكم، وإنّما ينظر إلى قلوبكم وبواطنكم.

فإنّما يُحكّم على الظاهر في القضايا العرفية والشرعية في الدنيا باعتبار ظاهر الناس بقاء والنظام الاجتماعي وسلامته، فإنّ يظهر الجميل ويستتر القبيح لبقاء النظام وسلامته ولتمشية الأمور، ولكن بالنسبة إلى الآخرة ويوم تُبلى السرائر والبواطن، فإنّما يحكم بما في القلوب وفي البواطن، ومن ثمّ كانت الأعمال بالنيّات، وكان الخلوة في الجنة والنار بالثوابت كما ورد في صحيح الأخبار والآثار عن الرسول المختار صلى الله عليه وآله وأهل بيته الأطهار عليهم السلام.

فتوبى لمن أصلح باطنه وسريته، ومن أصلح سريره أصلح الله علانيته وظاهره، كما من أصلح بينه وبين الله أصلح الله بينه وبين الناس، ومن أصلح آخرته أصلح الله دنياه.

والبواطن والقلوب هي محلّ بروز وظهور المعارف والأسرار المكتومة، يقف عليه من كان من أهل المعرفة والكشف والذوق الشهودي بعلم إلهامي ونور من الله سبحانه يقذفه في قلب المؤمن، ومن شاء أن يهديه سواء السبيل والصراط المستقيم وأمّا في خصوص المعرفة الحسينية المكتومة في بواطن المؤمنين، إنّما تتجلّى خاصاً فيما خصّ الله سيد الشهداء عليه السلام بالخصائص والكرامات الحسينية، كاستجابة الدعاء تحت قبّته، والشفاء في تربته، والإمامة في ولده، وتاسعهم قائمهم الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد ما ملئت ظلماً وجوراً [7].

ثمّ الباطن هو عين الحقيقة في الإيمان أو الكفر والنفاق، والظاهر هو كالجسر إلى الباطن، كما هو كذلك في العكس، ليدلّ على شدّة العلقة والإرتباط الوثيق بين الظاهر والباطن وبالعكس، فإذا كان الباطن في المعارف الحقّة هو الحقيقة، فإنّ الظاهر سيكون الشريعة، كما أنّ الرابطة بينهما ستكون الطريقة، فلا بدّ للسالك إلى الله سبحانه في طي منازل السائرين ورحلته الأبدية من التمسك بالشريعة والطريقة الحقيقية، ألا أنّّه لا على ما يذهب إليه المتصوفة المبتدعة والضّالة المضلّة، بل ما كان على ضوء القرآن والعترة عليهم السلام.

فالباطن: حقّ اليقين، وهي الحقيقة، والظاهر: علم اليقين وهو الشريعة، والرباط: عين اليقين وهي الطريقة، هذا ما أذهب إليه في الجملة.

ومن كل يقين سيكون ينابيع وعيون الحكمة والأسرار الشهودية والغيبية جارٍ في قلوب المؤمنين العارفين، ولا يلبّاقها إلاّ ذو حظ عظيم، رزقنا الله وإياكم ذلك الفوز العظيم والمقام الكريم، آمين يا

ربّ العالمين.

[1] الكافي: 1: 44.

[2] ميزان الحكمة: الحديث رقم: 7421.

[3] مفاتيح الجنان: دعاء الغيبة، والكافي: 1: 337.

[4] الروم: 30.

[5] المؤمنون: 14.

[6] الإسراء: 85.

[7] لقد ذكرت جملة من الخصائص والكرامات الحسينية في كتاب (الأضواء لشرح وتفسير زيارة عاشوراء) المجلد الأول وهو على الموقع (علوي نت) فراجع.